إله الكل[1]

استمعت إليه وهو يُناجي اللّه ويقول: "مَن أنا يا رب، حتى أتحدث إليك؟! أنا التراب، وأنت كل العظمة وكل المجد... أنا الخاطئ الـذي يضـعف أمام حروب الشياطين ويسـقط في كـل يوم! كيف أقف يـا رب أمامـك، وأنت القـدوس الكُلي القداسـة، المُحـاط بملائكتك القديسين، يُسبِّحونك كل حين. ومعهم أرواح الأبرار من البشر، الذين يفعلون باستمرار ما يُرضيك...؟!

كـان يجب عليَّ يـا رب أن أدرك مَن أنا ومَن أنت؟! ولكنني تجرأت، وفتحت فمي لأتحـدَّث إليـك، وأنا غريب عن ملكوتك. لستُ من هذا الجمع المقدس الذي لك والذي هو حولك. وليست لي دالة أن أتكلَّم. فاغفر لي يا رب هذه الجرأة...".

وهنـا تـدخلت وقلت لـذلك الصـديق: لاـ يا أخي، لا تظن أن اللّه هو إله الأبرار فقط، الأقوياء في روحياتهم، بل هو إله الكل. هو إله الخطاة أيضًا. يشـفق عليهم في سقوطهم، ويجذبهم إليه بأنواع وطُرق شتَّى، حتى يقودهم إلى التوبة. وهو ليس فقط إله الأقوياء. بل هو أيضًا إله الضعفاء المحتاجين إلى قوة منه، تسند ضعفهم وتمنحهم القوة.

إنَّ الضعفاء والسـاقطين والخطـاة هـم أحـوج النـاس إلى اللّه، وهـو لاـ يتخلَّى عنهم. "لأـنه لاـ يحتـاج الأصحاء إلى طـبيب، بل المرضى". وقد سألوا مرة رجلًا إعرابيًا: مَن هو أحب أبنائك إليك؟ فقال: "الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يُشفى، والغائب حتى يعود". يقصد الأكثر احتياجًا. فإن كان القلب البشـري هكذا، فكم بالأكثر قلب اللّه؟! لا شكَّ إن كل المحتاجين يجدون فيه كل العطف وكل الحنو. " إنه مُعين مَن ليس له مُعين، ورجاء مَن ليس له رجاء".

إن اللّه هـو إله الكـل. هو إله العصفور المسكين، ينقذه من فخ الصـيادين. وهو أيضًا إله الصـيادين الذين نصـبوا الفخ لهذا العصفور. وهو الحافظ للتوازن بين كل هؤلاء.

إنَّ اللّه ليس لشـعب واحـد مـن شـعوب الأرض. بـل هو لشـعوب الأرض كلها. السُّود والـبيض والصُّفر والسُّمر، كلهـم خليقتـه، وكلهم تحت رعايته وموضع اهتمامه، بما فيهم من صالحين وخُطاة، وبما فيهم من رعية ورُعاة. اللّه يريد أن الجميع يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون.

فلا يظن الخاطئ أنه ليس من رعيـة اللّه، أو أن اللّه لا يهتم به! لو كان الأمر هكذا، ما كان ممكنًا لأي خاطئ أن يتوب! ولكن مشـيئة اللّه غير ذلـك. فاللّه يشـفق على الخطاة جميعهم. ويرسـل إليهم نعمـة لتعمل في ضـمائرهم وقلوبهم وأفكارهم، وتقودهم إلى التوبة. ولعلَّ من الأمثلة الواضـحة القديس أوغسطينوس الـذي كان بعيـدًا جدًا عن الإيمان، وعن حياة الفضيلة، وكانت أمه تُصـلِّي من أجله بـدموع كثيرة. كيف أن اللّه اقتاده إليه؟ فصار مؤمنًا، وتائبًا وقديسًا.

إنَّ اللّه الـذي لا يتخلَّى عن أحد من خليقته، اهتم بالعالم الوثني، وساعـده على أن يترك عبادة الأصنام ويصير مؤمنًا. وكذلك العالم الذي من قبل يؤمن بتعدد الآلهة، كيف قاده إلى تركها ليؤمن بالإله الواحد خالق السماء والأرض.

حقًـا إنَّ اللّه هو إله الكـل. كـان إلهًـا لهؤلاء الوثنيين، وصبر عليهم حتى آمنوا به... وكان إلهًا لليونان الـذين آمنوا بجمهرة من الآلهـة تحت قيادة زيوس، وصبر عليهم حتى آمنوا به. وكان إلهًا للمصـريين القدماء الذين آمنوا بآلهة كثيرة منها: رع وآمون وأوزوريس وإيزيس وحورس وغيرها، ولكنه صبر عليهم حتى آمنوا به.

إنه إله كـل هؤلاء. وفـترة بعـدهم عنه، لم تجعله يعتبرهم غربـاء عـن رعيته. هكـذا فترة الشـيوعية المُلحـدة في روسـيا، كـان اللّه وهو، يرعاهم ويهتم بهم، إلى أن عادوا إليه.

إنَّ اللّه هـو إله الكـل، سواء ضـلُّوا عن الإيمان أو عن حيـاة البر. مـا أجمل عبارة القديس أوغسطينوس عن حياته السابقـة في الخطية: **"كنت يـا رب معي. ولكنني من فرط شـقوتي لم أكن معك".** عجيب أن يقول إن الرب كـان معه، وهو خـاطئ! نعم كان معه، وبذلك استطاع أن يُغيِّر حياته إلى البر، وإلى التوبة، وإلى النمو في ذلك حتى أوصله إلى القداسة.

إنَّ اللّه هو إله الكل، مهما كانت حياتهم مُتغيِّرة. هو إله المجاهدين الذين يبذلون حياتهم وجهدهم في خدمة الآخرين، وفي نفس الوقت هو إله العُبَّاد والنُّسَّاك الذين يقضون حياتهم في الصلاة والتأمل والنُّسك.

إنه إله البُسـطاء، والحُكماء. إله الجُهلاء والعُلماء. ليس الكل طبيعـة واحـدة، ولا عقليـة واحـدة. ولكنهم كلهم خليقـة واحـدة، لإله واحـد، يضمهم جميعًا تحت رعايته. ويهتم بالكل ليكونوا جميعًا أبناء للملكوت.

حقًـا إن ملكوت اللّه، سـيضُم أُناسًـا من أنواع شـتَّى، واللّه سـيقبلهم، بشـرط نقاوة قلوبهم، مهمـا كـانت درجتهم أو نـوعية عملهم. يكفي أن يكونوا أنقياء القلب، حتى لو كانوا ضُعفاء في مستواهم، أو صغارًا في سِنّهم.

مادام اللَّه للكل، فهو لا يرفض أحـدًا. وحتى الـذين يرفضونه، لا يأخـذهم بجهالتهم، وإنما يحاول أن ينقـذهم من هذا الرفض. تارة بترغيبهم في الحياة الروحية. وتارة بتجارب ترجعهم إليه.

ومادام اللَّه للكل، فليس هناك مهمُّون ومُهمَّشُون. بل كل إنسان يشـعر باهتمام اللَّه به أيًّا كانت ظروفه. فطبيعة اللَّه الحانية المملوءة من الشـفقة على الكـل، ترتبط أيضًا بعمل اللَّه الرعوي. لأنه يرعى الكل. وهكـذا يشـعر كل إنسان بأنَّ اللَّه يرعاه وأنه يقود خطواته، حتى إن أخطأ الطريق، يصلح له طريقه ولكن لا يتخلَّى عنه.

إلهنا هو اللَّه الذي بعد أن خلق العالم كله، ظلَّ يعتني بكل مَن فيه، مهتمًا بكل فرد من خليقته، يريد الخير للجميع، سواء هنا على الأرض، أو في المصـير الأبـدي. ولا يوجـد أحد لم ينل من فيض نعمته... أمَّا الهالكون فهم الذين اختاروا لأنفســهم الضـياع، وأصـرُّوا على ذلك، ورافضين للنعمة.

---

1. مقال لقداسة البابا شنوده الثالث نشر في جريدة الأهرام بتاريخ 27-9-2009م